المنار

١٣١٥

يفسر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ جمادى الاولى ١٣٣٩ـ١٩ الدلو (ش٢) سنة ١٢٩٩ه ش ٨ فبراير ١٩٢١

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف أو يعبر بما شاء من الالقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه ، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

حقيقة التصوف ومكانه من الشرع

(س٣) من صاحب الامضاء

السلام عليكم ورحمة الله

الى فضيلة مولانا وراشدنا السيد رشيد رضا

وقع نظري على بعض الاعمال الدينية في بلدي المسمى بالسنبلاوين مما من

أجله أرجو أن تعرفونا حقيقة التصوف وهل له قوانين ونواميس غير ما بينته الشريعة المحمدية . واذا كان هو ما جاءت به الحنيفة فما الحاجة اليه والقرآن والسنة بين يديه وان كان مخالفا فمن أقر المبتدئ فيه عليه ومن أين استنبط ذلك المخترع تلك الطرق التي توصل الى الله (كما يعبرون) ولعمري إن صح هذا كان لله طريقان طريق بينه على لسان رسوله الكريم في كتابه المبين وآخر قد هدى اليه بعض عباده المهتدين

وانما دعاني الى سؤالكم والاستنارة بمنارکم ما أخشاه من كسوف شمس شريعتنا في ذلك الافق (أفق الصوفية) فاني ارى من ينسبون اليه ويدعونه قد ولعوا بمقتضياته وشغفوا بها حتى أنستهم الاذكار والاوراد التي يتغنون بها في الساحات والاندية وما الفاتهم في الشوخ والاولياء انسام ذلك أساس الدين وكبد الشريعة (التوحيد) وهذا طبق ما أراه غريزة في بعض النفوس من الشغف بالكماليات وربما سحبت ذيول النسيان على الواجبات فشا منها لاصحابها وانهم قاموا بما فرض عليهم وارتقوا الى أن وجب عليهم ما ندب اليه الدين، وزجا منها بهم الى زمرة المقربين الذين امتثلوا وأمضوا أوامر الدين

وان سبق لكم هذا فأرجو من فضيلتكم اعادته باختصار وذلك كما تعلمون اقرب عهدنا بالمنار لازالتم مصادر الرشد وأهل الفضل والوقار

حسين محمد حسين النجار

مدرسة القضاء الشرعي

[المنار] التصوف مصدر تصوف الرجل - أي صار صوفيا أي أحد أفراد الطائفة المعروفة بالصوفية ، وأشهر الاقوال في المنسوب اليه أنه الصوف لانهم كانوا يلتزمون لبسه وقيل انه كلمة سوفا أو سوفي اليونانية ومعناها الحكمة وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس أنه نسبة الى صوفة وهو لقب الغوث بن مر بن أد ابن طابخة بن الياس بن مضر لانه قد اشتهر عند العرب أنه أول من التقطع الى الله تعالى لعبادته عند بيته الحرام ، وتسلسل ذلك في ولده فصار لقب صوفة يطلق على كل منهم وناطت العرب به وبهم من بعده اجازة الناس بالحج من عرفة ومنى وهي الافاضة منهما فكانت لا تفيض منهما حتى يفيض صوفة فاذا حانت الاجازة تقول

بن أنجبن ي صوفة » وكان سبب هذه التسمية ان أم الغوث كان لا يعيش لها ولد فنذرت لئن عاش لتلفن رأسه صوفة ولتجعله ربيط الكعبة، ففعلت فقيل له ثم لولده من بعده صوفة - نقله عن السائب الكلبي

قال الحافظ المذكور: كانت النسبة في زمن رسول الله (ص) الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومؤمن ثم حدث اسم زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقا تخلقوا بها - ثم ذكر نسبتهم التي لخصناها عنه آنفا . ثم قال في تاريخه ومبدأه : هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مئتين ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال الحسنة. ثم ذكر أن أوائلهم كانوا على ذلك حتى لبس عليهم الشيطان فكان أول تلبيسه ان صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا في الظلمات فمنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ، ومنهم من أغرى بتعذيب النفس بالجوع والعرى والفقر الاختياري، ومنهم من غلبت عليهم الخيالات ، حتى قالوا بالحلول والاتحاد، وكانوا يعنون بالنظافة والتنظم في الطهارة . وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعة . وذكر بعد هذا تصانيفهم وما فيها من الغلو في الدين والاحاديث الباطلة . ثم انتقل الى بيان ضروب التلبيس عليهم وما خالفوا فيه الشرع عن جهل أو تأول وأطال في ذلك . وكتابه هذا جدير بأن يطبع

ولشيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية فتوى في الصوفية والفقراء نشرناها في ج ١٠ م ١٢ من المنار ثم طبعناها في رسالة على حدتها لتعميم نفعها. وقد ضعف فيها القول بنسبتهم الى صوفة لانها قبيلة كانت في الجاهلية ولا وجود لها في الاسلام رجح نسبتهم الى الصوف وقال ان لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقال ان أول ظهورهم كان في البصرة لانه كان فيها من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك مما لم يكن في سائر الامصار ولهذا

كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية . وذكر بعض أحوال الصوفية ووزنها بميزان الشرع وسيرة السلف الصالح كما دته فبين الراجح من الشائل فيها وان الناس فيهم بين ذام يرميهم بالابتداع والخروج عن السنة وبين غال يدعي انهم أفضل الخلق بعد الانبياء ، وان الصواب هو الوسط وهو انهم كغيرهم من الطوائف مجتهدون فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ولكن انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ثم بين ان كلامه في صوفية الحقائق الاولين ، وأنه حدث بعدهم صنفان وهم صوفية الارزاق الذين يقيمون في الخوانك ويأكلون فيها ما وقف على الصوفية ، وصوفية الرسم الذين همهم تقليدهم في اللباس والآداب الوضعية ، ويسهل على السائل أن يراجع هذه الفتوى ويقرأها ، ويقرأ ما كتبه ابن خلدون في مقدمته ان لم يكن قرأه فان أكثره صواب

واننا قد ذكرنا في تاريخ الاستاذ الامام عيون ماذكره هؤلاء المحققون في بيان حقيقة الصوفية وزدنا عليهم مسائل مهمة استنبطناها من كتبهم ومن كتب التاريخ أجملناها في ورقتين مثل أوراق المنار ملخصها ان الصوفية طائفة انقطعت الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس وتربية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى . ثم ادعى جاهلهم من ليس منهم غشا وتلبيسا ، ولبس لباسهم من تناقض حاله جاهلهم دعوى وتقليدا — وان رياضة النفس وتزكيتها تثمر للصادق فيها علما وعرفانا بسنن الله في الارواح وأسرار قواها وأحوالا وأذواقا غريبة غير مألوفة ولا معروفة لغير أهلها (منها) التأثير بقوة الارادة في بعض أمور الكون كشفاء مريض وتنفير من الشر وجذب الى الخير ويسمونه التأثير بالارادة أو الهمة (ومنها) معرفة بعض الامور من غير طريق الحس أو الفكر وهو مايسمونه المكاشفة (ومنها) الغوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها وصفات النفوس البشرية وقواها وعللها الخ ومنها غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره هنا

وان هذا التصوف برياضة النفس قد سبق المسلمين اليه قدماء الهنود والصينيين واليونان ، وقد سرى الى المسلمين كثير من بدع أولئك الاقوام وضلالاتهم

وشعائرهم وشاراتهم (كالتسبيح والاعلام) حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود فصارت غاية الطريق عندهم . وبث الباطنية في التصوف ضلالات أخرى شر أصولها التأويل البعيد للآيات والاحاديث وطاعة الاذعان لكل ما يأمر به السالكين شيوخهم وان كان منكرا وعدم الانكار عليهم في شيء . وكانت الباطنية تقصد بهذا التعاليم افساد دين الاسلام وابطاله وازالة ملكه بالدسائس التي وضعها عبد الله ابن سبأ اليهودي وجمعيات المجوس السرية التي بثت في المسلمين دعوة الغلو في التشيع لآل البيت والطعن في أعاظم الصحابة لافساد دين العرب وتقويض دعائم ملكهم بالشقاق الداخلي لتتمكن تلك الجمعيات بذلك من اعادة ملك المجوس وسلطان دينهم الذين أزالهما العرب بالاسلام . ولولا هذان الاصلان — التأويل والطاعة المطلقة — لما راجت الضلالات والبدع في هذه الطائفة لان أصل طريقتها تزكية النفس بالعلم والعمل الشرعيين مع الصدق والاخلاص والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس حتى على الخواطر ومن المأثور المشهور عن أئمة الصوفية قولهم : التصوف أخلاق فمن زاد عليك في الاخلاق زاد عليك في التصوف وهو من قواعد الاسلام المنصوصة المعلومة منه بالضرورة انه «لا طاعة في معصية انما الطاعة في المعروف» وهذا اللفظ من حديث مرفوع في الصحيحين وغيرهما عن علي كرم الله وجهه وفوقه قول الله تعالى لرسوله (ص) في آية المبايعة (ولا يعصينك في معروف)

ثم بينا هنالك أنه لا سبيل الى تصفية التصوف من البدع الا بتحكيم الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح فيه قبولا وردا بعد بيان أن الضلالات والبدع المتغلغلة في كتب الصوفية قسمان — ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل في الكتاب ولا في السنة الا ما زعموه من التأويلات المخالفة للغة والشرع — وما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر الدينية المخالفة للسنة في ذاتها وأصلها أو في صفتها وطريقة أدائها حتى ان بعض كبار الفقهاء والمتكلمين روجوا بعض هذه البدع والآراء بالتأويلات والتوسع فيما جوزه بعضهم من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الاعمال ولم يراعوا ما اشترطه المحققون في هذا من الشروط — فترى مثل الغزالي من أكبر أئمة علماء الكلام والفقه يرغب

في بعض العبادات المبتدعة مستدلا عليها بهذه الاحاديث الواهية أو الموضوعة دع ما يتعلق منها بالاعتقاد

مثال ذلك صلاة الرغائب في رجب وصلاة ليلة نصف شعبان ذكرهما الغزالي في الاحياء مستدلا عليهما بما ورد فيهما وهو موضوع وقد قال فيهما النووي في منهاجه : وصلاة رجب وشعبان بدعتان قبيحتان مذمومتان . ولم يكن النووي أعلم بفقه الشافعي من الغزالي بل قال بعض العلماء ان كتب الشيخين الرافعي والنووي مأخوذة من كتبه التي حرر بها المذهب كما قال فيه وفيها بعضهم :

حرر المذهب حبر أحسن الله خلاصه
بسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ولكن النووي كان أعلم منه بالسنة فان الغزالي لم يتوسع في علم السنة الا في آخر عمره (وتممت الخاتمة التي وفقه الله لها بحسن نيته واخلاصه له الدين) ولعله لم يؤلف بعد ذلك شيئاً .

فهذا مثال ما أخذوا فيه بالموضوع . ومما أخذوا فيه بالضعيف الواهي — وهو أكثر — دعاء الوضوء قال في المنهاج : وحذفت دعاء الوضوء اذ لا أصل له . وهو يعني الدعاء الذي ذكره الرافعي تبعاً للغزالي . واعتذر الشمس الرملي شارح المنهاج عنه بأنه يعني انه ليس له أصل صحيح أو لم يكن مستحضراً لما ورد فيه من حديث ضعيف ورد من طرق والضعيف يعمل به في الفضائل ما لم يشتد ضعفه فيما له أصل صحيح كلي ولكن لا يستدل به على السنية - هذا ما أذكره عنه بالمعنى وذكر أن والده الشهاب الرملي اعتمد دعاء الوضوء - وأقول ان النووي نفى ورود شيء من السنة في دعاء الوضوء في مواضع من كتبه ومنها الاذكار وتعقبه صاحب المهمات فقال ليس كذلك بل روي من طرق منها عن أنس رواه ابن حبان في ترجمة عباد بن صهيب، وقد قال أبو داود انه صدوق قدري وقال أحمد ما كان بصاحب كذب . وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال لو لم يرد فيه الا هذا لشبي الطال ولكن بقية ترجمته عند ابن حبان : كان يروي المناكير عن المشاهير حتى يسبق المبتدي في هذه الصناعة (أي رواية الحديث) انها موضوعة . وساق منها هذا الحديث اه وقال الذهبي في ترجمته من الميزان : وروى عن حميد عن أنس بخبر طويل في الذكر على الوضوء باطل الخ

أقتصر على هذين الشاهدين من لاحد بالاحاديث الموضوعة والواهية لنصوص الفقهاء فيهما وهم الذين يعول الجمهور على كلامهم ويرجعونه على كلام سائر الطلبة فيما اختلفوا فيه لانهم هم الذين أتقنوا تحرير فقه الائمة الذين يدعي الناس تقليدهم وكانت المحاكم تحكم بما دونوه في كتبهم ولا تقبل الفتوى الا منها حتى صار جماهير المنتسبين الى طرق الصوفية ينبهون هؤلاء الفقهاء وان كان الصوفي الحقيقي — وهو العارف بربه العالم بدينه العامل به — لا يقلد احدا . وقد احتكر الفقهاء لانفسهم حق ترجيح أقوالهم على أقوال المفسرين والمحدثين ، بل الصوفية والمتكلمين ، كما صرح به ابن حجر الهيثمي في الفتاوي الحديثية . وكان الصواب أن يحكم علماء الآثار من التفسير والحديث وسيرة سلف الامة في كل خلاف وتنازع يقع بين المسلمين ليبينوا لهم حكم الله ورسوله فيه عملا بقوله عز وجل (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ولا خلاف بين أحد من العلماء في معنى هذا الرد بل هم متفقون على أن الرد الى الله هو الرد الى كتابه والرد الى الرسول بعد وفاته هو الرد الى سنته . وعلماء الآثار هم المختصون بعلم ما صح في التفسير ومن سنة الرسول (ص) وسيرة السلف وكثيرا ما يأخذ الفقهاء بما لا يصح من الاحاديث وقد يحكمون بالقياس مع وجود النص بل يأخذون بأقوال المصنفين المنتمين الى مذاهبهم وان لم يعرفوا لها دليلا ولا نصا من كلام أئمتهم المجتهدين ولا سيما المتأخرين منهم وقد أعملوا المشتغلين بكتبهم سلاحا يحاربون به نصوص الكتاب والسنة اعتذارا بالتقليد فكل كتاب يقتني مصنفه الى مذاهبهم يحتج به عندهم ويعمل بما فيه ولكن لا يجوز الاهتداء عندهم بالكتاب ولا بالسنة الا من هداه الله ووفقه ولم تضل أمة من أمم الرسل عن دينها أبعد من ضلال هؤلاء ولولا حفظ الله لكتابه وتوفيقه الحفاظ لتدوين السنة لتعذر الاصلاح ومعرفة حقيقة الاسلام . وقد سبق لنا بيان هذا مرارا كثيرة آخرها ما بسطناه في الكلام على فتوى شيخ الازهر في انكار بعض البدع وما فصلناه في الفتوى الاولى والثانية من جزئي المنار اللذين قبل هذا

وجملة القول في صوفية المسلمين أن علماءهم كسائر أصناف علماء المسلمين الذين استقلوا بعقولهم في الدين من المتكلمين والفقهاء كل صنف قد انفرد بالتوسع في

علم فجاء فيه بما لم يجيء به غيره وكل منهم أخطأ وأصاب فالصوفية اتقنوا علم الاخلاق والآداب الدينية وحكم الشريعة واسرارها وطرق تزكية النفس واصلاحها — وهذا بفرض الدين ومقصده فان كانوا قد غلوا وأتوا ببعض مايخالف النصوص ودخل في كتبهم وأعمالهم من تصوف الامم السالفة ومن البدع ماينكره الاسلام فالمتكلمون أيضا قد دخل في كتبهم مثل ذلك من الفلسفة اليونانية وغيرها من البدع المخالفة للنصوص ولما كان عليه السلف وكذلك الفقهاء قد دخل في كتبهم مثل ذلك بالرأي والقياس والاخذ بالاحاديث الضعيفة والموضوعة . وكل من في هذا العصر من المتحلين لطرق الصوفية فهو منتم الى أحد مذاهب الفقهاء والمتكلمين فلو صلح حال المشتغلين بعلم الفقه لامكنهم إصلاح أهل الطريق وأنى يصلح غيره من لم يصلح نفسه؟ وأنى يصلح نفسه أو غيره من اتخذ علم الدين حرفة للارتزاق به فهو يخدم ويطبع من يعتقد أو يظن أو يتوهم أن أمر رزقه بيده ولو فيما يضر ملته وأمته ؟

من هذا البيان الوجيز المفيد يعلم السائل حقيقة التصوف وان له كتبا تشبه القوانين أكثر ما فيها منصوص أو مستنبط من الشرع أو غير مخالف له وبعضها بدع تلصق به إلصاقا بشبهات وتأويلات باطلة . وأحسن الكتب في تصوف الحقائق وأسلمها من مخالفة الكتاب والسنة فيما نعلم كتاب مدارج السالكين . وأما سؤال السائل عن وجه الحاجة اليه مع وجود الكتاب والسنة فجوابه ان علمي الكلام والفقه يشاركان التصوف في هذا السؤال وجوابه فكما شعر المسلمون بالحاجة الى تصنيف الكتب في بيان أصول العقائد التي تستند الى الكتاب والسنة للتمييز بينها وبين البدع وإثباتها بالادلة النظرية الفنية التي كانت مألوفة بانتشار كتب الفلسفة ورد شبهات المخالفين على هذه العقائد — وكما شعروا بالحاجة الى تدوين علم الاحكام الشرعية في العبادات والمعاملات لايضاح ماجاء في الكتاب والسنة من النصوص وما يمكن ان يستنبط منها ولو بطريق القياس الذي احتج على اثباته بعضها — كذلك شعروا بالحاجة الى تدوين الكتب لبيان طريقة التربية والتأدب بالآداب المنصوصة فيهما أو المستنبطة منهما والمفصلة فيهما من الاجمال. وقد قلنا آنفا إن ما وقع في كتب الصوفية من المخالفة لبعض نصوصهما وسيرة السلف الصالح الذين أجمعت كل الفرق على تفضيلهم وخيريتهم وقع مثله في

كتب المتكلمين والفقهاء. يعلم ذلك من كتب السنة ومن الكتب التي يرد فيها كل منهم على الآخر، والفقهاء المقلدون يوجبون طاعة شيوخهم الذين التزموا تقليد مذاهبهم ويجعلون كلامهم أصلا في الدين يردون به نصوص الكتاب والسنة بتأويل أو غير تأويل كما يوجب المتصوفة طاعة شيوخهم المسلكين ويؤولون ما خالف فيه الشرع ولكن لا يقولون انه اصل في الدين يجب على الناس اتباعه شرعا بل شبهة هذه الطاعة عندهم ان التربية المرادة من سلوك الطريقة تتوقف على هذه الطاعة موقتا لا دائما وأن كلامهم في الحقائق رموز لا يفهمها غيرهم

وقد ذكر المحقق ابن القيم في كتابه (اعلام الموقعين) أمثلة كثيرة لما خالف فيه المقلدون للمذاهب المشهورة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة اتباعا لاقوال شيوخهم واحتجوا لهذه الاقوال بالاقيسة أو بجعل المتشابه أصلا للمحكم أو بأحاديث لا تصح ولا يحتج بها بحسب القواعد الاصولية ومنها ما احتجوا له بعبارة من حديث صحيح يردون باقيه المخالف للمذهب وهذا من عجيب أمرهم كما قال وقد أورد له ستة وستين شاهدا في الوجه التاسع عشر من وجوه الرد على المقلدين التي بلغت ٨١ وجها فليراجعها السائل ومن شاء في الفصل المعقود للكلام في القياس والتقليد من الجزء الاول من هذا الكتاب الجليل .

ثم انه عقد بعد هذا الفصل فصلا آخر في « تحريم الافتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص وذكر اجماع الفقهاء على ذلك » وقد أورد في هذا الفصل ٧٧ مثالا لرد أهل المذاهب السنة الصحيحة الصريحة المحكمة بالقياس أو بغير الصحيح أو بالمتشابه ، وذكر في الوجه الثامن منها بعض شبهاتهم ورد عليها باثنين وخمسين وجها كلها شواهد تؤيد ما ذكرناه

فاذا كان الامر كذلك فلماذا يخشى السائل كسوف شمس الشريعة في أفق الصوفية دون غيرهم وهو يعلم أن المتحلين لطرق التصوف والمتحلين لمذاهب الفقه لا تزييل بينهم ولا تمييز - فلا هؤلاء على هدي أئمة الفقه من علماء السلف كمالك والشافعي، ولا اولئك على هدي أئمة التصوف كالجنيد والشبلي وأمثالهم من عباد السلف. فالحق أن جميع الفرق لها حسنات وسيئات (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين)

وأكثر مسلمي هذا العصر ضعفاء في الدين علما وعملا ولاسيما في البلاد التي ليس فيها حكومة اسلامية تقيم الحدود وتلتزم الشرع . والبلاد ذات الحكومة الاسلامية على قلتها بعضها شديدة التعصب لمذهب معين كالبلاد الافغانية المتعصبة لمذهب الحنفية وحكومة اليمن المتعصبة لمذهب الزيدية فهذان لا يرجى أن يكون فيهما اصلاح اسلامي عام لاستحالة اتباع جميع المسلمين لهذا المذهب أو ذاك — وبعضها شديد الغلو في العمل مع ضعف في العلم كبلاد نجد ولكن لهذه مزية لا نعرفها لبلاد أخرى من بلاد المسلمين في هذا العصر وهي أنهم وان كانوا منتمين الى مذهب الامام أحمد فلا نعرف جماعة من جماعات الاسلام غيرهم تقبل اتباع كل ما ثبت في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وتدعو اليه. وترد ما خالفه وان قاله أو كتبه حنبلي مثلهم، ومع هذا يرميهم كثير من المسلمين بالابتداع والضلال ومنهم من يكفرهم كابرا عن كابر من بذلك من يدعو الى الكتاب والسنة من الافراد. وأي بلاء أشد على الاسلام من هذا؟ واذا قيض الله لهذه البلاد أن يتسع فيها العلم فانها تحيي الاسلام في جزيرة العرب ومن ثم يتجدد في سائر العالم فيعود الامر كما بدأ.

قال صلى الله عليه وسلم «بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء» رواه مسلم عن أبي هريرة والنسائي عن ابن مسعود وابن ماجه عنهما وعن أنس . وروى مسلم من حديث ابن عمر مرفوعا «ان الاسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ ويأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها» وفسر الغرباء في حديث آخر مرفوع بقوله «الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي» رواه الترمذي من حديث عمرو بن عوف المزني. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ حتى صار المسلم الحق المحيي للسنة غريبا مطعونا في دينه ، فاذا قوي هؤلاء الغرباء الذين يحيون ما أماتت الناس من سنته (ص) واعتزوا بعد ضعفهم الذي هو عليه اليوم كما كان سلفهم في بدئه فان غربته تستتبع المجد والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين آخرا كما استتبعته أولا لاتحاد السبب

ان العالم الاسلامي ليئن من ضعف دينه وامتهان شعوبه بامتهانه ، وانه ليتبرم من سوء حال سادته وكبرائه والمتحلين العلم الدين ومن جهل أكثرهم بما يجب من الخدمة في هذا العصر وقعودهم عنها حتى امتهنوا وسقطوا من مكانتهم الاجتماعية

ولم يبق بأيديهم من مصالح الامة شيء يعتدون به، فلو وطنوا أنفسهم في بعض البلاد على الحرمان منها ورضوا بعدم مشاركة غيرهم حتى بالبحث فيها — وانه سيضطر على الازهر وأمثالهم من معاهد سائر الاقطار الى الاصلاح الذي كانوا يقاومونه وانما يضطرهم الى ذلك باحتقاره لهم عليه اليوم اذ قرب ان يزول ما كانوا يمتازون به من اتباع السواد الاعظم من العوام لهم وتقبيلهم لايديهم ومواساتهم بالهدايا والصدقات والوصايا فيه اذا كانوا اذا قام فيهم مصلح كالسيد الافغاني الحكيم والاستاذ الامام هموا في آذان هؤلاء العوام : هذا معتزلي هذا فيلسوف هذا كافر يريد أن يفسد عليكم دينكم ، فحافظوا على تقاليدكم وعوائدكم واستغاثتكم بأهل القبور الذين يتوسلون لكم عند الله بدفع النقم وحفظ النعم — التي جعلتكم وراء جميع الامم

نعم أوشك أن يزول ذلك بل زال الا قليلا وقد رأينا ما كان من تأثير موت الاستاذ الامام وموت غيره من أكابر الشيوخ الذين تولوا منصب الافتاء مثله وتولوا مالم يتول من مشيخة الازهر — اضطراب القطر المصري واهتز العالم الاسلامي كله اذ مات الاستاذ الامام باشد مما اضطربت بيوت أولئك الشيوخ لموتهم الذي لايكاد يشعر به وما ذلك الا لانهم كانوا يعيشون لانفسهم و بيوتهم وكان يعيش لامته وملته

سبقت الهند مصر وسورية والحجاز في احياء السنة علما وعملا وقد تمهدت العقبات امام مصر و بدت طلائع الاصلاح في نابغة الازهر ولكن الحركة فيه لاتزال بطيئة ولا تسرع بها الا صدمات المعارضة والمقاومة لها وحينئذ نجد من طلاب الاصلاح الديني والدنيوي أعوانا وأنصارا نجهرها و يتعاون رجال الدين ورجال المدنية على الاصلاح الاسلامي الديني المدني و يظهر صدق قولنا في المقصورة بعد التنويه بما قام به الاستاذ الامام من الاجتهاد في اصلاح الازهر

فان يك الازهر لم يصلح بها فقد نأى عن سبل من كان مأى (١)
ونبتت من غرسه نابتة تسلأم البدع وتأبى الثأى
وترفع الحجب عن المعهد أو يعود جحر الضب كما كنا (٢)

(١) مأى بالهمز وتعمق أي بعد عن طرق المتأخرين المتنطعين المتعمقين في مباحث عبارات الكتب (٢) أي الى أن يعود جحر الضب الذي دخلوا فيه باتباع سنن =

اذاً ينال وهو قد أشفى الشفا ... من ممضل بات به على شفا
ثم ولى المصلحون شطره ... يحونه من كل فج ورجا
ماوردوا حياضه وصدروا ... الا يفيضون علوما وهدى
فاحيوا الاسلام في انفس من ... داناهم بهجره صرف الردى
فعاد آهلا الى موطنه ... من غربة طال بها عهد النوى
وامتثبت غربته المجد كما ... كان فعاد الامر مثلما بدا

فتبين بهذا ان خوف السائل على الاسلام من بدع خلف المتصوفة هو من قبيل ترقع الواقع وانما يتلافى هذا الواقع فيهم وفي غيرهم بتجديد يكون سريعا اذا أيدته حكومة اسلامية وبطيئا اذا لم يتح له ذلك في بدء التجديد. وانما يكون التجديد بالتعارف والتعاون بين الطائفة التي بشر النبي (ص) بأن أمته لا تخلو من وجودها فانها الآن متفرقة في البلاد مامن قطر الا وفيه أفراد منها ففي حديث ثوبان في الصحيحين وكتب السنن «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» وفي معناه أحاديث أخرى

وأهم القواعد التي يجب بناء الاصلاح عليها هي

(١) الاعتراف بالاسلام كل مذعن لما أجمع عليه المسلمون من أمر الدين

(٢) بث دعوة العمل بهداية الكتاب والسنة الصحيحة وسيرة السلف الصالح فيهما كما أثبته علماء الحديث بالاسانيد المعتمدة وترك ما خالفه من أنظار المتكلمين وآراء الفقهاء ولا نزيد في أمور العبادات والحلال والحرام على ذلك ولا ننقص منه، وقد بينا حجج هذه المسألة مرارا. وليس معنى هذا ان يكون المهتدي بذلك اماما مجتهدا بل ان يكون على بصيرة من دينه على طريقة السلف عوامهم وخواصهم مع الاستعانة على فهم النصوص بما فسرها به العلماء

(٣) عدم التعصب لبعض المذاهب على بعض وذلك بأن نعذر كل متبع لامام من أئمة السلف المجتهدين في حكم من الاحكام من أئمة آل البيت كزيد بن علي

= من قبلهم واسما بسهولة الحنيفية السمحة، اشارة الى حديث ابي سعيد الخدري المتفق عليه «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» هذا لفظ البخاري ولفظ مسلم «حتى لو دخلوا في جحر ضب لتبعتموهم»

والصادق والباقر رأئمة فقهاء الامصار كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأئمة الصوفية كالجنيد، وعلماء الصحابة والتابعين بالاولى. ولا نكفر مسلما مذعنا بذنب ولا بدعة ارتكبها بجهل أو بشبهة اتباع امام أو بتأول. ومتى زال التعصب تكون المناظرة بين المختلفين في ذلك بالدليل الشرعي مع الادب والاحترام واتقاء الشقاق والتفرق بين المسلمين، ويتبع دعاة الاصلاح في ذلك قاعدة الامام مالك: كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه الا صاحب هذا القبر - يعني النبي (ص) فلا يتعصبون لشخص معين غير الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولا لجماعة غير الصحابة رضوان الله عليهم فما أجمعوا عليه فلا مندوحة عن اتباعه وما اختلفوا فيه يرجح فيه ما كان دليله أقوى والآخذون به من التابعين وسائر علماء السلف أكثر فانه قلما يسلم عالم مجتهد من شذوذ يتفرد به دون الجماعة فيعذر باجتهاده ولا يتبع فيه وانا نكتب في فرصة أخرى مقالا في شذوذ كبار العلماء الذين خالفوا الجمهور ليكون شرحا لقاعدة الامام مالك رحمه الله تعالى

(٤) الاستعانة بارشاد الكتاب والسنة على الاصلاح الدنيوي مع تحصيل العلوم والفنون التي ترتقي بها الزراعة والصناعة والتجارة والقوى الحربية فان هذا مفوض الينا بتلك الهداية التي نصت على أن الله خلق لنا ما في الارض جميعا وامرتنا بأن نعد لحفظ دعوة الحق ما نستطيع من قوة. وقال رسولنا صلى الله عليه وسلم «انما انا بشر مثلكم اذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر» وقال «أنتم أعلم بامر دنياكم» رواها مسلم في صحيحه

ولهذه المسائل تفصيل شرحناه في المنار مرارا بل كان المنار في جملته وتفصيله دعوة الى الاصلاح الاسلامي المبني على أساس اتباع جمهور السلف الصالح في أمور الدين رواية ودراية وعملا بلا زيادة ولا نقص - ويالينا نبلغ مدّ أحدهم أو نصيفه - واتباع ما تقتضيه المصلحة ويثبته العلم والاختبار في أمور الدنيا مطلقين لاجتهادنا العنان فيه - وهذا اتباع للسلف فيما فهموه من هدي الكتاب والسنة أيضا كما يعرف من سيرتهم في فتح البلاد وانشاء الدواوين وتعليم العلوم والفنون والعمل بها. وهو مذهب امام دار الهجرة مالك ابن انس كما بينه الشاطبي في الاعتصام وغيره

(ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

﴿ شرح قاعدة لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ﴾

٢

تتمة كلام شيخ الاسلام وهو في الاختلاف في الدين

ثم المختلفون المذمومون كل منهم يبغي على الآخر فيكفر بما معه من الحق مع علمه انه حق ، ويصدق بما مع نفسه من الباطل مع علمه بأنه باطل ، وهؤلاء كلهم مذمومون ولهذا كان اهل الاختلاف المطلق كلهم مذمومين في الكتاب والسنة فانه مامنهم الا من خالف حقا واتبع باطلا ، ولهذا أمر الله الرسل أن تدعو الى دين واحد وهو دين الاسلام ولا يتفرقوا فيه وهو دين الاولين والآخرين من الرسل واتباعهم قال تعالى(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه) وقال في الآية الاخرى (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم * وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) أي كتبا اتبع كل قوم كتابا مبتدعا غير كتاب الله فصاروا متفرقين مختلفين لان أهل التفرق والاختلاف ليسوا على الحنيفية المحضة التي هي الاسلام المحض الذي هو اخلاص الدين لله الذي ذكره الله في قوله (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ذلك دين القيمة) وقال في الآية الأخرى(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون * منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون)فنهاه أن يكون من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وأعاد حرف «من» ليبين أن الثاني بدل من الاول والبدل هو المقصود بالكلام وماقبله توطئة له وقال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ـ الى قوله ـ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فأخبر أن أهل الرحمة لايختلفون . وقد ذكر في غير موضع أن دين الانبياء كلهم الاسلام

كما قال تعالى عن نوح (وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال عن ابراهيم (اذ قال ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون) وقال يوسف (فاطر السموات والارض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وقال عن السحرة (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) وقال عن بلقيس (رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار) وقال (واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «انا معاشر الانبياء ديننا واحد» وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحداً وهو الاسلام كالدين الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فانه هو دين الاسلام أولا وآخرا، وكانت القبلة في أول الامر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة ،وفي كلا الحالين الدين واحد وهو دين الاسلام فهكذا سائر ما شرع للانبياء قبلنا ولهذا حيث ذكر الله الحق في القرآن جعله واحداً وجعل الباطل متعدداً كقوله (وأن هذا صراطاً مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقوله (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقوله (اجتباه وهداه الى صراط مستقيم) وقوله (ويهديك صراطاً مستقيما) وقوله (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) وهذا يطابق ما في كتاب الله من أن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي قيل فيه (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل كما قال (هذان خصمان اختصموا في ربهم) وقد ثبت في الصحيح انها نزلت في المقتتلين يوم بدر في حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي وعبيدة بن الحرث ابني عميه والمشركين الذين بارزوهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة

وقد تدبرت كتب الاختلاف التي يذكر فيها مقالات الناس من المسلمين وغيرهم مجرداً مثل كتاب المقالات لابي الحسن الاشعري وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ولابي عيسى الوراق أو مع انتصار لبعض الاقوال كسائر ما صنفه أهل الكلام

على اختلاف طبقاتهم فرأيت عامة الاختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم وأما الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وكان عليه سلف الامة فلا يوجد فيها في جميع مسائل الاختلاف بل يذكر أحدهم في المسئلة عدة أقوال والقول الذي جاء به الكتاب والسنة لا يذكرونه، وليس ذلك لانهم يعرفونه ولا يذكرونه بل لا يعرفونه، ولهذا كان السلف والأئمة يذمون هذا الكلام ولهذا يوجد الحاذق منهم المنصف الذي غرضه الحق في آخر عمره يصرح بالحيرة والشك(١) اذا لم يجد في الاختلافات التي نظر فيها وناظر ماهو حق محض وكثير منهم يترك الجميع ويرجع الى دين العامة الذي عليه العجائز والاعراب كما قال أبو المعالي وقت السياق: لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الاسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن ان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها انا ذا أموت على عقيدة أمي . وكذلك أبو حامد في آخر عمره استقر أمره على الوقف والحيرة بعد أن نظر فيما كان عنده من طرق النظار أهل الكلام والفلسفة وسلك ماتيسر له من طرق العبادة والرياضة والزهد وفي آخر عمره اشتغل بالحديث بالبخاري ومسلم ، وكذلك الشهرستاني مع أنه كان من أخبر هؤلاء المتكلمين بالمقالات والاختلاف وصنف فيها كتابه المعروف بنهاية الاقدام في علم الكلام وقال : قد أشار على من اشارته غنم، وطاعته حتم . ان اذكر له من مشكلات الاصول ، ماأشكل على ذوي العقول، ولعله استسمن ذاورم. ونفخ في غير ضرم،

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر الا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

فاخبر انه لم يجد الا سائراً نساكا مرتاباً أو من اعتقد ثم ندم لما تبين له خطأه فالاول في الجهل البسيط (كظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها) وهذا دخل في الجهل المركب ثم تبين له انه جهل فندم، ولهذا تجده في المسائل يذكر أقوال الفرق وحججها ولا يكاد يرجح شيئاً للحيرة، وكذلك الآمدي الغالب عليه الوقف في الحيرة . وأما الرازي فهو في الكتاب الواحد بل في الموضع منه ينصر قولا وفي موضع آخر منه أو من كتاب آخر ينصر نقيضه. ولهذا استقر أمره على الحيرة والشك . ولهذا لما ذكر ان أكمل العلوم العلم بالله

(١) المنار: اي الشك في الترجيح بين المسالة الكلامية والفلسفية لا في أصل الاسلام

وبصفاته وأفعاله ذكر على أن كلا منها اشكال (١) وقد ذكرت كلامه وبينت ما أشتمل عليه وعلى هؤلاء في مواضع فان الله قد أرسل رسله بالحق وخلق عباده على الفطرة فمن كمل فطرته بما أرسل الله به رسله وجد الهدى واليقين الذي لاريب فيه ولم يتناقض ولكن هؤلاء أفسدوا فطرتهم العقلية وشرعتهم السمعية بما حصل لهم من الشبهات والاختلاف الذي لم يهتدوا معه الى الحق كما قد ذكر تفصيل ذلك في موضع غير هذا

والمقصود هنا انه لما ذكر ذلك قال: ومن الذي وصل الى هذا الباب، ومن الذي ذاق من هذا الشراب

نهاية اقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال : «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا. ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ـ أقرأ في الاثبات (اليه يصعد الكلم الطيب ـ الرحمن على العرش استوى) وأقرأ في النفي (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي» وهو صادق فيما أخبر به انه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع قيل وقالوا وانه لم يجد فيها ما يشفي عليلا أو يروي غليلا، فان من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة للحق الذي يدل عليه المنقول والمعقول بل يذكر في المسألة عدة أقوال والقول الحق لا يعرفه فلا يذكره. وهكذا غيره من أهل الكلام والفلسفة ليس هذا من خصائصه فان الحق واحد ولا يخرج عما جاءت به الرسل وهو الموافق لصحيح العقل وفطرة الله التي فطر عليها عباده. وهؤلاء لا يعرفون ذلك بل هم (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) وهم مختلفون في الكتاب (وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)

وقال الامام أحمد في خطبة مصنفه الذي صنفه في محبسه في الرد على الزنادقة

(١) المثبت كسبب مستصحب الكتاب في المطبعة الاميرية : هكذا في الاصل: لعل في الكلام نقصا أو تحريفا والصواب والمعول لعل الاصل: ذكر أن كلا منها عليه اشكال ـ أو ذكر أن على كل منها اشكالا

والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله قال: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى، ويصبرون منهم على الاذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه، وكم من تائه ضال قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم» وهو كما وصفهم رحمه الله فان المختلفين أهل المقالات المذكورة في كتب الكلام اما نقلا مجرداً للاقوال واما نقلا وبحثاً وذكراً للجدال مختلفون في الكتاب كل منهم يوافق بعضاً ويرد بعضاً ويجعل مايوافق رأيه هو المحكم الذي يجب اتباعه ومايخالفه هو المتشابه الذي يجب تأويله أو تفويضه وهذا موجود في كل مصنف في الكلام. اهـ

*

هذا ما أحببنا نقله من كلام شيخ الاسلام في هذا المقام وقد أطال بعده في وصف المتكلمين وخلافهم وفشل الاشعري على غيره في معرفة الفرق ومذاهبها وذكر خلاف الفلاسفة أيضا. ونصر مذهب السلف بالعقل والنقل على مذاهب جميع المتكلمين والفلاسفة. ولا يهولنك تخطئته هذا الرجل لجميع أولئك الاساطين من الفلاسفة والمتكلمين غروراً بشبهة الشيطان انه لا يعقل ان يكون هو أعلم منهم أو أذكى حتى يكون أحق بالصواب وأولى. فالرجل ليس صاحب مذهب مخترع تعارضت أدلته مع أدلة هذه الفرق واشتبه علينا الامر حتى نرجح قوله على كل منها أو نرجح غيره عليه، بل هو ناصر مذهب جمهور السلف الصالح بالادلة العقلية التي اخدع بنظرياتها كل من شذ عنه قليلا أو كثيرا. وأساس مذهبهم الايمان بكل ماجاء في كتاب الله وصح عن رسوله على الوجه الذي كان عليه خير الامة قبل افتتانها بالنظريات التي فرقتها شيعا. ونحمد الله أن يسر لها من هدم كل ماخالف السلف من تلك النظريات بأدلة من جنسها هي أقوى منها وأثبت بالبرهان أن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول. ويتم من هذا اثبات ان هذا الدين من عند الله اذ لو كان من عند الرسول أو غيره لكان في باطن المتكلمين والفلاسفة

وكان المتأخر أسبح رأيا فيه من المتقدم

وقد استوفى الرد على أولئك الخالفين للسلف من المنتسبين الى مذاهب السنة والمبتدعة والفلاسفة في كتابه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) وانني انقل منه هنا ماختم به الوجه السابع من الوجوه التي تكلم فيها على تقديمهم العقل على النقل عند التعارض وهو :

﴿ تفنيد ابن تيمية لقول المتكلمين بتقديم النظريات العقلية على النصوص السمعية ﴾

والمقصود هنا التنبيه على أنه لو سوغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله تعالى ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى فان الذين سلكوا هذه السبيل كلهم يخبر من نفسه بما يوجب حيرته وشكه والمسلمون يشهدون عليه بذلك فثبت بشهادته وقراره على نفسه وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الارض انه لم يفلح من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن اليه ولا معرفة يسكن بها قلبه ولذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولا صريحا يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا ان قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول فسر ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح اما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الامة واما بظهور تناقضهم ظهورا لاارتياب فيه واما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من المعقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه والناس اذا تنازعوا في المعقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى بل يرجع في ذلك الى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغير فطرتها ولا هوى فامتنع حينئذ أن يعتمد على ما يعارض الكتاب من الاقوال التي يسمونها معقولات وان كان ذلك قد قالته طائفة كبيرة لمخالفة طائفة كبيرة لها ولم يبق الا أن يقال ان كل انسان له عقل فيعتمد على عقل نفسه وما وجده معارضا لاقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من رأيه خالفه وقدم رأيه على نصوص الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ومعلوم أن هذا أكثر ضلالا واضطرابا فاذا كان قول النظار وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الى الغاية وهم لبلهم وتهارهم يكدحون في معرفة هذه المعقليات ثم لم يصلوا فيها الى

معقول صريح يناقض الكتاب بل أما الى حيرة وارتياب وما الى اختلاف بين الاحزاب فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة اساليب الكلام من العقليات

فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه الا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب فالاول (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) والثاني (كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وأصحاب القرآن والايمان في نور على نور قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وقال تعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره) الى آخر الآية وقال تعالى (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه أولئك هم المفلحون) فأهل الجهل البسيط منهم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعاصرين للكتاب المعرضين عنه، وأهل الجهل المركب أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها عقليات وآخرون ممن يعارضهم بقول مناقض لتلك الاقوال هو عقليات ومعلوم أنه حينئذ يجب فساد أحد الاعتقادين أو كليهما والغالب فساد كلا الاعتقادين لما فيهما من الاجمال والاشتباه وأن الحق يكون فيه تفصيل يبين أن مع هؤلاء حقا وباطلا ومع هؤلاء حقا وباطلا والحق الذي مع كل منهما هو الذي جاء به الكتاب الذي يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه والله أعلم اهـ

[المنار] كل مؤمن سليم الفطرة صحيح العقل اذا قرأ هذا يجزم بأنه الحق، وانه يجب على المسلمين أن لا يغتروا بشهرة أحد من المتكلمين ولا المتصوفة ولا الفقهاء الذين خالفوا السلف فيما نقله الثقات المحدثين عنهم من أمر الدين، وأما النظر كل عالم في اجتهاده اذا ثبت من سيرته اخلاصه لله تعالى وابتغاء قصده تأييد الشرع ولكن لا نتبع أحدا فيما خالف هدي السلف الصالح والمحدثين المعتمدين على نقل الثقات المحدثين دون آراء المختلفين . وهذا منتهى الاصلاح في الدين .